

مدخل إلى علم التاريخ

الاسم بالعربية

Course Name

استاذ المقرر

د/ عبدالحليم رمضان



جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

كلية الآداب

المحاضرة الأولى

عنوان المحاضرة



الباب الأول

المصادر الأساسية للتاريخ



المحاضرة الأولى: علم التاريخ نشأته وتطوره:

لفظ التاريخ ومدلوله لغةً واصطلاحاً:

لغة: تأريخ مصدر من أرخ بلغة قيس وهو اللفظ الشائع عند العرب ,
وتاريخ كل شيء من حيث اللغة هو غايته ووقته الذي ينتهي إليه ,
ولهذا يقال : فلان تاريخ قومه في الجود أي الذي انتهى إليه ذلك .
اصطلاحاً:

التاريخ , هو تعريف بالوقت , وقد اختلف العلماء في أصل لفظ تاريخ
(عربي , فارسي ,) , والتاريخ على العموم يعني التوقيت ,
أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها . وتعني الزمن والحقبة .



وقد أشار السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : (أن التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها . وموضوعه الإنسان والزمان).



أطوار الكتابة التاريخية:

مرت الكتابة التاريخية في أطوار متعددة . ففي وقت كان التاريخ مجرد سرد للأحداث أو تدوينها دون نقد أو تمحيص أو محاولة التثبت من صحتها.

أول صورة دون بها التاريخ كانت في صورة قصصية.

أقدم التواريخ المدونة هي ما جاء في أسفار (التوراة و العهد القديم) حيث ذكرت الأخبار الأولى عن الأحداث التي مرت بالخلقة منذ نشأتها الأولى (كقصة خلق الإنسان , والظوفان) , ولذلك تمدنا الكتب السماوية بالمعلومات التاريخية الأولى عن حياة الإنسان وعلاقته بالآخرين على الأرض مسرح الأحداث .



وهذا يؤكد أن التاريخ موضوعة الإنسان والزمان , فقد بدأ الإنسان منذ فجر الخليقة يحكي لأبنائه وأحفاده القصص عن الأجداد والسلف , وبالطبع امتزجت هذه القصص الحقيقية بالخيال , وبذا بدأ الإنسان يهتم بأخبار أسلافه السابقين.

وقبل أن يتعرف الإنسان على الكتابة عبر عن هذه الأفكار التي جالت في أذهانه بالرسم والنقش على الحجر مستخدماً في ذلك ما أمكنه استخدامه من آلات وأدوات ومواد, ومن ثم ترك لنا الإنسان الأول على جدران الكهوف والمغاور من الأماكن التي سكنها ما يمكن أن نستدل به عن بعض أفكاره وعن نظم حياته ومعتقداته.



ومع تقدم الإنسان تطورت حياته , كما تطورت وسائل التعبير عن أفكاره ومعتقداته وأسلوب حياته حتى عرف الكتابة , فكانت طفرة عظيمة في مجال تسجيل الأحداث .

وكما ذكرنا فقد حرص الإنسان على تناقل قصص الأحداث السابقة لأبنائه وأحفاده ولم تخل هذه الأخبار من التحريف والإضافات مما يضيف على هؤلاء الأسلاف ثوبا من البطولات والتمجيد .

ولعل الهدف الأساسي هو اتخاذ العظة والعبرة من الماضي , وتوضيح الحاضر , والنظر إلى المستقبل في ضوء هذا الماضي بعظاته وعبره .



محاولات تدوين الأحداث التاريخية الأولى:

- 1- أيام المصريين القدماء: قام الكاهن (مانيثون) الذي عاصر بطليموس الأول والثاني بوضع تاريخ لمصر القديمة على نظام الحوليات, لكنه فقد ولم يبق منه إلا شذرات قليلة.
- 2- البابليين: (بيروسوس) ألف كتاب عن تاريخ بابل سنة 250 ق. م لكنه فقد أيضا.
- 3- الإغريق :
- (هكتيوس) كتب عن أصل الشعب الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد.



- (هيرودوت) الملقب أبو التاريخ ,كتب عن النزاع بين الإغريق والفرس.

- (ثوكوديديس) اهتم بحرب البلوبونيز بين أثينا واسبرطه.

- الالياذه والاوديسه التي تنسب إلى هوميروس.

ملاحظة : تميزت كتابات الإغريق بالبعد عن الخرافات والأساطير وبمحاولة الوصول إلى تفسير منطقي للأحداث .



4- الرومان:

- (بوليبوس) الإغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد وكتب عن المدينة الرومانية , فتوح الرومان أنظمتهم السياسية والاقتصادية..
- (يوليوس قيصر) 51ق.م . كتب عن حرب غالية وعن انتصاره على بومبي .
- (ليفي) ألف في تاريخ الجمهورية الرومانية .
- (تاسيت) تحدث عن الفساد الاجتماعي والتدهور الخلفي في روما .
- وقد أثرت المسيحية في تقييد الأحداث التاريخية.



- 5- في العصور الوسطى: بدأ الكتاب يدقون فيما يكتبون وينسبون الأخبار لأصحابها ومنهم:
- نانت في فرنسا 1049م. وفيليب دي كومين (أبي التاريخ الحديث)
 - الانجلو سكسوني في ألمانيا 1154م .
 - ماثيو باريس في بريطانيا صاحب التاريخ الأكبر 1255م.
 - بلوندوس الايطالي دعا إلى رفض الأساطير وتحكيم العقل 1463م.



- 6- في عصر النهضة الأوروبية التي تميزت ب:
- صبغ التاريخ بالصبغة الزمنية وأصبح يكتب من قبل العلمانيين وليس رجال الدين.
 - إحياء الدراسات القديمة اللاتينية والإغريقية ودورها في تغيير الكتابة التاريخية.
 - ظهور روح النقد والتمحيص والتحليل للمراجع والمصادر الأصلية واستبعاد ما لا يثبت صحته. وممن اشتهر في ذلك:
 - لورنزوفلا في كتابه منحة قسطنطين.



- مكيافيلي صاحب كتاب (الأمير) و (تاريخ فلورنسا).
- فرجيل كتب عن تاريخ انجلترا في عهد هنري السابع.
- مارتن لوثر 1546م زعيم حركة الاصلاح الديني الذي كان يدعو الناس لدراسة الكتاب المقدس بأنفسهم دون الاعتماد على البابوية فأثار روح النقد والتحليل لديهم.
- لقد استفاد التاريخ من الجدل المذهبي الكاثوليكي والبروتستانتى اكبر فائدة من حيث جمع مادة علمية ضخمة اتسمت بروح النقد والتمحيص.



- 7- القومية: إذ دفعت بالشعوب الأوروبية إلى التلاحم والتكاتف وتسجيل التاريخ المشترك، وظهرت بذلك الدولة الوطنية الحديثة.
- 8- الاستعمار الأوروبي الذي سلب الشعوب ثرواتها فظهرت الطبقة و اضطربت الأحوال الاجتماعية وتكونت الشركات الرأسمالية , والاقطاعية وتدهورت احوال دول وانتعشت اخرى , وظهر نظام الحكم المطلق في اوربا وترتب على ذلك:
- الصراع بين اسبانيا والاراضي المنخفضة.
- الصراع بين الملكية وطبقة النبلاء في فرنسا.
- الثورة الدستورية في إنجلترا.



ويهمنا القول إن جميع الأطراف المتصارعة كانت حريصة على شحذ أقلام كتابها للتفاخر بقضيتهم واسقاط صورة أعدائهم , فأسهم ذلك في وفرة مادة للتطور السياسي والدستوري أحيانا.

9- حركة الاستنارة في القرن الثامن عشر:

اذ بدأ الاهتمام بإنشاء الأكاديميات وبرز منتسكيو في كتابه (روح القوانين) وجان جاك روسو (العقد الاجتماعي). وفولتير (عصر لويس الرابع عشر) , وجبون (تاريخ اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية) , وولف الألماني وهردر (روسو الألماني) ونيبور.



10- في القرن التاسع عشر :

الاهتمام بجمع المصادر التاريخية ونشرها:

-المانيا : (جمعية دراسة التاريخ الالمانى).

- فرنسا : (جمعية تاريخ فرنسا).

-بريطانيا : (مصلحة المطبوعات الرسمية). (لجنة المخطوطات التاريخية).

- الولايات المتحدة الامريكية (جامعة هارفارد , كولمبيا ,
متشيجان ..)



- ولزخم المدونات التاريخية فقد قسم التاريخ إلى سياسي اقتصادي واجتماعي وثقافي
- ظهرت العديد من الآراء الفلسفية للتاريخ عند:
- كاسيرو : الذي يعتبر تقدم علم التاريخ من أعظم انجازات عصر الاستنارة.
- هيجل الذي يرى أن تاريخ العالم ينقسم إلى (الحكم المستبد الشرقي ثم اليوناني والروماني ثم الجرمانى وظهور شخصية الإنسان).

أولاً : الوثائق

عندما تذكر علم التاريخ نذكر على الفور الوثائق ، والوثيقة هي أرق أنواع المصادر ، ولكن الوثائق درجات وأنواع ، فهناك وثائق من الطراز الأول . ونعني بالوثيقة من الطراز الأول هي تلك الكتابة أو المسند أو الخطاب أو المكتوب أو المعاملات الرسمية التي لم يُؤد بها كتابها أو مُشترها أن تكون شاهداً على التاريخ ، ومن ذلك عقود البيع والشراء والاتجار والزواج والوقفات ، وقوائم الأسماء وكشوف الحسابات والتقارير السرية . الخ .

ولتوضيح هذه الفكرة نضرب عدة أمثلة :

١ - لو أنك ذهبت لاستئجار بيت أو شقة فإن صاحب البيت أو الشقة يكتب عقداً يوقع عليه ويوقع عليه المستأجر . عندما أنشأ أو كتب صاحب البيت هذا العقد لم يكن يقصد به أن يكون شاهداً على التاريخ ، وإنما قصد إثبات حقه في البيت وضمان حقه في الأجرة ، وكذلك المستأجر يريد أن يضمن حقه في حيازة البيت أو الشقة حيازة مؤقتة هي مدة العقد . لم يكن التاريخ في حساب صاحب البيت أو المستأجر بحال من الأحوال ، أو أنهما لم يضعا في اعتبارهما عند كتابة العقد أن طالباً أو باحثاً أو مؤرخاً سيأتى بعد فترة من الزمن ويحصل على هذا العقد ليتخذ مصدراً للتاريخ .

إذن ، لو أن باحثاً تاريخياً أراد أن يؤرخ للحياة الاقتصادية أو الظروف الاجتماعية في مصر في مطلع القرن العشرين واستطاع الحصول على عدد مناسب من عقود الإيجار في هذه الفترة ألا يخرج بمعلومات طريفة صادقة .

٢ - وبعض الأشخاص من ذوي المكانة والأموال يكتبون قبل أن يوافهم الأجل توصيات أو وقفيات ، وهم حين يكتبون ذلك لا يقصدون في الغالب الأعم شهادة التاريخ وإنما يريدون تحقيق إرادة قانونية لذلك تمد هذه الوثائق أو الوقفيات مصدراً أساسياً وصادقاً للتاريخ . وفي بعض المحاكم المصرية عدد كبير من الوقفيات يمكن اعتبارها مصدراً هاماً لدراسة التاريخ المملوكي والعثماني ومن ذلك :

حققت الإرساليات المشروية ما حققته من نشر للمسيحية ولو ذكر أن الإرساليات والسلطة الأوربية تعمل ألف حساب للمسلمين في أفريقيا السوداء ولا تتوقع منهم تحويلاً للمسيحية أو مؤازرة للأوربيين ، لو أن باحثاً ذكر ذلك أو بعضه لامتداه بالتمصب والمبالغة . أما إذا قدم لنا وثيقة صادقة كهذه ، فذلك إذن حقائق أساسية وتلك إذن هي سياسة الاستعمار إزاء المسلمين مدعومة بالوثيقة .
مرة أخرى ، هل من الممكن أن تترد هذه الحقائق في بيان أو خطة أو توجيه عنى الجارى ؟

إنها الوثائق ، المصدر الأصل للتاريخ ، لأن منشئها عند كتابتها أو صياغتها لم يكن يقصد بها شهادة التاريخ ، فأتت صادقة حاوية على نوايا الحقيقية .

* * *

نتقل الآن إلى وثيقة أخرى لها نوع آخر من الاستخدام إذ أنها أغفلت بعض الحقائق التاريخية . وهذا يوضح أن الوثيقة التاريخية يمكن الاستفادة منها سلباً وإيجاباً بمعنى أنها إذا أوردت حقائق تاريخية كان على المؤرخ أن يستفيد منها . وإذا أغفلت حقائق تاريخية يعرفها المؤرخ من وثائق أخرى أو مراجع أخرى أو مسكوكات أو آثار ، فإن هذا الإغفال لا يخلو من دلالة ، فهو يدل على أن منشئ الوثيقة أو كاتبها إما جاهل بهذه الحقائق التاريخية ، وإما معرض يبغي من وراء إغفاله هذا تحقيق مصلحة اقتصادية أو سياسية أو دينية .

والوثيقة التي نحن بصددنا عنوانها :

« اللوحة رقم ١٤ المورخية في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٧ بشأن الرق بالتعليم وتقديم الإعانات لتطويره في مستعمرة ساحل الذهب »

والوثيقة صحيحة بشهادة دار الوثائق القومية الغانية^(١) ولكن عند تحليل مضمونها تلاحظ أنها لم تشر من قريب أو بعيد لوجود تعليم إسلامي سواء نظام الكتابيب أو المدارس الإسلامية المُعانة من الحكومة . ولما كانت هذه الوثيقة لائحة رسمية فإنه من

١ - انظر شهادة الصحة والاعتماد في الصفحة التالية وراجع الأقسام والنسخ الأخرى كما هو باد في الصورة وراجع ما كتبه عن صحة الوثيقة السابقة .

الواضح أن حكومة المستعمرة الانجليزية لا تريد أن تعترف بوجود الإسلام والتعليم الإسلامي في غانا من الناحية الرسمية إما تمهيداً لإلغائه أو التقليل من شأنه . وهكذا ترى أن الوثيقة الصحيحة لا تخلو من مدلول تاريخي سواء أشارت للحقيقة التاريخية أم أغفلتها .

وثائق التاريخ الحديث ، المشورة وغير المشورة :

ضربنا لك في الصفحات السابقة أمثلة على وثائق لا زالت أصولها موجودة في دور الوثائق أو الأرشيفات القومية ولكننا لم نحصل عليها من هذه الأرشيفات وإنما حصلنا عليها من كتب أو مجموعات وناقية قام مؤلفوها بالذهاب بأنفسهم إلى دور الوثائق والأرشيفات ونشروها ، ثم أخذوها أنا في كتابي هذا عنهم ، أو استعان بها باحثون آخرون .

هنا لا بد من وقفة فأنا أو غيري من الباحثين لم نَرَوْا الوثائق الأصلية ولم نتحققوا من وجودها في أرشيفها في مكانها الطبيعي وفي ملفها أو دفترها الطبيعي وفي تسلسلها الزمني ، وإنما اعتمدتُ واعتمد غيري على أن غيري قد رآها وعابها . وعمل الباحث في هذه الحالة إذا شك في صحة الوثيقة أو علم الناشر لها أو نزاعه العملية أن يرجع بنفسه إلى الوثيقة الأصلية في دار الوثائق أو الأرشيف الذي أشار المؤلف أنه أخذها منه .

وهذه ليست مشكلة بالنسبة لوثائق التاريخ الحديث وأواخر العصر الوسيط الأوربي . لتوفر عدد كبير منها في دور الوثائق .

كما ضربنا لك - في الصفحات السابقة أيضا - أمثلة على وثائق حصلنا عليها مباشرة من دار الوثائق ، وتأكدنا بأنفسنا من وجودها في أماكنها وتسلسلها الزمني ، ثم حصلنا على شهادة بصحتها معتمدة ومعنومة من الأرشيف أو دار الوثائق . فذلك إذن وثائق صادقة مائة في المائة وليس هناك مجال لتزييفها أو الكذب عليها أو فيها .

ومن ناحية القيمة الأكاديمية تعتبر الوثائق غير المشورة أكثر قيمة ، وتعطي البحث التاريخي أهمية كبيرة . وغالبا ما يشترط الأستاذ المشرف على الطالب الذي يُعد درجة للماجستير أو الدكتوراه في مجال التاريخ الحديث أن يضمن بحثه بعض الوثائق التي لم يسبق نشرها ، وذلك لسببين :

وثائق التاريخ الإسلامى (الوسيط)

الوثيقة هى الوثيقة سواء انتمت للتاريخ الوسيط أو الحديث أو حتى القديم . ولكن وثائق كل عصر تاريخى لها طبيعتها الخاصة كما سنوضح من حيث مادة الكتابة وأدائها^(١) لكن هناك فرقا أساسيا سبق أن أشرنا إليه وهو أن وثائق التاريخ الحديث المنشورة فى كتب ، إن شككت فيها لجهل ناقلها أو ناشرها أو لفلة نزاهته العلمية ، فما عليك إلا أن ترجع لأصل الوثيقة من دار الوثائق أو الأرشيف . أما بالنسبة لمعظم وثائق التاريخ الإسلامى الوسيط فالأمر يختلف ، فقد نشر المؤرخون العرب بدءا من ابن اسحق وابن هشام مروراً بالطبرى وابن مسكويه-حتى مؤرخو الدولة المملوكية وغيرها من الدول الإسلامية آلاف الوثائق . . أوامر سلطانية ، وقفيات ، خطابات متبادلة . . الخ لكن الغالبية العظمى لهذه الوثائق ليس لها أصول بين أيدينا ، لذلك فالحكم عليها متوقف على مدى نقتنا فى المؤلف ، والوثيقة فى هذه الحالة مثلها مثل الرواية العادية تخضع للنقد والتحليل والترجيح لكن ليس لدينا وسيلة مادية حاسمة للتأكد من صحتها على نحو ما نفعل فى وثائق التاريخ الحديث أو وثائق التاريخ الوسيط والقديم التى بين أيدينا نسخها الأصلية،تستطيع أن نذهب بها للمعمل ونحدد عمرها بالوسائل العلمية ، ونقارن أختامها والتوقيعات عليها ، ونقارن كتابتها بنوع الكتابة فى ذلك العصر وما إلى ذلك فمثل هذه الوسائل المادية ذات نتائج حاسمة لا تقبل الجدل .

وهذا يوضح أن الباحثين فى مجال التاريخ الإسلامى يتعبون تعباً شديداً فى تحقيق المسائل الجلائية لعدم وجود الوثائق الأصلية فى معظم الأحوال . وليست الوثائق بأعز على أصحاب الغرض من حديث الرسول عليه السلام الذى تعرض لحملة أكاذيب

(١) انظر ما كتبناه عن النقد المادى للوثائق فى الصفحات التالية .

ووضع شرسة لتحقيق أغراض سياسية وشعبوية لولا أن هبَّ الله له رجالا بحثوا فيه وسنوا في بحثهم متجها مازلتا نترسم خطاه حتى اليوم .

لكن هذا لا يعنى أنه لا توجد وثائق أصلية متممة للعصور الإسلامية . إذ الواقع أن عدداً كبيراً من هذه الوثائق لا زال موجودا ، لكن أماكن وجوده ليست عادة هي دور الوثائق والأرشيفات وإنما المحاكم (خاصة وثائق الوقف) والمتاحف (خاصة التي تهتم بالتراث الإسلامي) .

وتحفظ وزارات الأوقاف ودوليتها في العالم العربي والإسلامي بكثير من وثائق الوقف الدائمة العيت والتي تنتمي إلى العصر الوسيط والدولة العثمانية . وتوجد أيضا وثائق من هذا النوع وغيره في المديرية العامة للأوقاف في أنطوره كما يوجد كثير من وثائق الوقف والسجلات القضائية في بعض المحاكم الشرعية بما لها من أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الاجتماعي والمعماري . . . (١١) .

ووثائق الوقف تشير لكثير من المظاهر الحضارية في العالم الإسلامي ، فالوقف كثيرا ما يُخصص للإلتحاق على البيمارستانات ومدارس الأيتام وعمران المساجد وعتق الأرقاء والإفراج عن المسجونين وما إلى ذلك . ووثيقة الوقف غالبا ما تقدم وصفا للبيمارستان أو المدرسة أو المسجد . . . وذلك كله يعين المؤرخ على تقديم وصف حضارى ذاعر بالتفاصيل . . (١٢)

ويذكر الباحثون أن العصر المملوكي بالذات يتميز بكثرة وثائقه التي ما زال جزء كبير منها موجودا .

وبعض وثائق العصر المملوكي لا توجد في إدارات الأوقاف والمحاكم وإنما توجد في المكتبات وذلك مثل المكتبة الظاهرية بدمشق (١٣) .

وبعض الوثائق الإسلامية مكتوبة على البردي ، إذ عثر الباحثون على برديات تُعطي دلالات حضارية عن حياة المصريين الاجتماعيه والاقتصادية في ظل الحكم الإسلامي في

(١١) إبراهيم ، عبد اللطيف : وثائق الوقف على الأماكن المقدسة . نشره حسن بخرت مصادر تاريخ الجزيرة العربية . الرياض - جامعة الرياض ، ١٩٧٧ (١٣٩٧ هـ) - ١ - ص ٢٥١ .

(٢) إبراهيم ، عبد اللطيف : المرجع السابق . ص ٢١٥ .

(٣) إبراهيم ، عبد اللطيف : المرجع السابق . ص ٢٥٥ .

عهد الدولتين الأموية والعباسية . وتُحدد هاتين الدولتين لأن البرديات المعروفة الآن تغطيهما وإن كان هذا لا يمنع اكتشاف برديات أقدم من ذلك فيما بعد .

والوثائق البردية الخاصة بمصر « تنقسم إلى قسمين : قسم مكتوب باللغة اليونانية قام الأستاذ بل H.G.Bell بنشره ، وهي موجودة في الجزء الرابع من مجموعة أوراق البردي المحفوظة في المتحف البريطاني في لندن وقسم مكتوب باللغة العربية ، قام بنشره الأستاذ أدولف جروهمان Adolf Grohmann أستاذ اللغات السامية وتاريخ الحضارة الشرقية في الجامعة الألمانية في براج (القاهرة ١٩٣٤) وحوى عددا وفيرا من أوراق البردي ومجموعة من الألواح ، وقام بترجمته من الانجليزية إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ، وهو من الكتب الجديرة بالقراءة والدرس .^(١)





بِسْمِ اللَّهِ
بِحَمْدِ اللَّهِ

